مطالب الأديب العربي المهنية وقضية الحرية

بقلم محمد الجزائري

اذا كانت الحرية هي فهم الضرورة ، فاننا هنا لا ننظر اليها بمعزل عن قوانين الطبيعة ، بل في ضوء معرفة هذه القوانين وامكانية استخدامها في النشاط العملي . واذا كانت الحرية ، هي المطلب الاساس ، منذ زمن بعيد ، وعلى صعيد انظمة حكم وقوانين واجيال وثورات .. فهي لما تزل تشكل مطلب المطالب . وهي لما تزل النقطةالاولى في جدول اعمال الساعة المعاصر . وبدونها ، لا يمكن ان ينظر الاديب العربي الى بقية المطالب ، مهنية كانت ، ام سياسية ، ام اقتصادية، نظرة واضحة وعميقة .

ان الضرورة قوانين الطبيعة موجودة قبل ارادة الانسان ووعيه . وقد ظل الانسان قبل ان يدرس الضرورة يخبط خبط عشواء ، الا انه حالما ادركها استطاع ان يستخدمها في صالح المجتمع وعلى هذه الصورة .. فحرية النشاط الانساني ـ ومنه النشاط الادبي ـ ممكنة في حالة فهم الضرورة ، ويمكن القول ان الحرية هي الضرورة الموحاة. وقد خضع الانسان في العصور الاولى من تطور المجتمع لعبودية اجتماعية الى جانب خضوعه للطبيعة ومع تطور الملكية الخاصة وقيام المجتمع الطبقي اصبح الناس عبيدا لعلاقاتهم الاجتماعية الخاصة .

لذا فان الاديب العربي ، الذي يطمح ان يجد المجتمع العربي جديدا ، معافى ومتكاملا ، يناضل في سبيل خلق هذا المجتمع بكل الوسائل جنبا الى جنب القوى الطليعية في المجتمع ، وهو بهذا لا يفصل حركة الاشياء والظواهر عندما يمتلك وعيا ثوريا جدليا تتحكم فيه نظرية علمية اشتراكية .

اذ ان تطلعات الاديب العربي يجب ان تتخطى الواقع الحالي ، الى الواقع المطلوب عبر فهم الممكن من الامور ، الى تحقيق الضروري.

من هنا فالاشتراكيون السلميون يصرحون بانه في ظل الاشتراكية تكف العلاقات الاجتماعية من السيطرة على الانسان ، على ان هذا لا يعني ـ من وجهة نظرهم ـ بان القوانين الموضوعية تختفي في زمن الاشتراكية ، وانما الذي يحدث هو ان الناس يستطيعون ان يستخدموا هذه القوانين في بناء حياتهم الجديدة . وهذه النظرة تجد صداها عند الاديب العربي الذي يطمح لبناء مجتمع عربي اشتراكي وانسان عربي جديد .

لذا فالضرورة ـ حسب مفهومنا ـ كل ما له اساس في جوهر الظواهر والعمليات نفسها ـ كل ما ينبع من العلاقات والصلات الداخلية بين الاشياء ، لا بد ان يتحقق اثناء توفر ظروف معينة ، عكس المصادفة فهي « كل ما له اساس في غيره . اي انه لا ينبع من العلاقات الداخلية بين الاشياء ، بل ومن اسباب عرضية ، فيمكن ان يقع ويمكن ان لا يقع » .

لذا فليس مصادفة ، اولا ، ان يكون اختيار موضوع « مطالب الاديب العربي المهنية من حصة العراق ، وليس مصادفة ، ثانيا ، بل بحكم الضرورة ، ان ترتبط المطالب المهنية بوضع الاديب العربي في معركة المصير .

فماذا يريد الاديب العربي في معركة المصير اهم من الحرية أولا ، وآخرا ؟ والحرية ، كما قلنا ، هي فهم الضرورة .. اذن . فموضوعنا لا يمكن فصله مطلقا عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تمر به الامة العربية بشكل خاص والعالم بشكل عام .. حيث تنطوي الحرية على افق اوسع من قضايا الوطن العربي، وهي لا تتجزأ في قضاياها وفي ابعادها وفي ساحة تحرك الناس من اجلها ، هنا في ارضنا العربية ، او في اي مكان آخر من ارجاء المعمورة ..

اذن فالحديث عن « المطالب المهنية » فقط يدفع الى السقوط في « التبسيطية » ـ بمعنى رؤية السطح الخارجي للظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتعلق بالبحث دون الغوص في اعماقها لاكتشاف العوامل المحركة الداخلية في كل ظاهرة ، والتأثيرات التي تتبادلها مع العوامل المحركة في الظواهر الاخرى ـ بكل تعقيداتها ـ وآي مفكر جدلي يؤمن بالاشتراكية العلمية يرفض منطق التبسيطية هذا ، في آي بحث يتناول لمشكلات الاديب العربي ومطالبه المهنية . اذ ان فهم البنية الطبقية لواقع المجتمع العربي (الذي لما يزل في اكثر من بقعة من وطننا ، مجتمعا وسيطا للامبريالية) بعيدا عن المنهجية التجزيئية والتي تؤدي ـ حتما ـ الى « تركيب ميكانيكي » ـ آي جمع حسابي للظاهرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ هذا الفهم التجزيئي سيبعدنا ، حقا ، عن وضع اليد على جرح القضية . وهو فهم تتبناه البورجوازية الصغيرة المتذبذبة ، التي تحاول ان تسقط قيمها على الواقع ، فتبتعد ـ بالتشخيص ـ عن الامراض الحقيقية لهذا الواقع والتي

تنجم عنها الثغرات الكبيرة التي تحول دون انسجام واتساق فكر الاديب العربي الثوري ، مع العديد من انظمة الحكم وعقلياتها مما يسبب هذه الغربة القسرية التي يعاني منها الاديب العربي ، ويحس ان الحل في مطالبه المهنية دون تلبية مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية عموما . مع الاخذ بنظر الاعتبار ان مطالب الاديب الكاملة لا تتوفر الا في المجتمع الاشتراكي ، غير ان هذا لا يمنع من النضال من اجل تحقيق ما يمكن تحقيقه في ضوء الانظمة القائمة .

لذا فان فهم الطبيعة الطبقية لانظمة الحكم العربية (التي تمتلك صياغة التشريعات وتمتلك القوى التنفيذية لها ..) ، وان فهم الطبيعة الاقتصادية لكل بلد عربي وما ينجم عنها من تحرك سياسي واجتماعي وثقافي ، يجب حصره ازاء « معركة المصير » واقعا وتحركا، ستراتيجية وتكتيكات ... تدفع ـ بالضرورة ـ الى فهم طبيعة العلاقة الانتاجية والثقافية بين الاديب العربي ، وكل هذه التشريعات والانظمة، التي سببت ـ مع مرور الزمن ـ ازدياد مشاكله بحيث نجم عنها ذلك الاحساس بالمطالبة (المهنية) كجزء من المطالب العامة على جميع الاصعدة .

اذن ستبقى « الحرية » ، وستبقى « الديمقراطية » ، وستبقى طموحات الاديب العربي في تغيير بنية المجتمع العربي وتثوير الارض العربية كلها ، في سبيل خلق البديل الاروع ، الذي يحقق انظمة حكم ديمقراطية وجبهات نضال عريضة ، ووحدة مواقف ، واهداف ، وتنظيمات وتحركات ، لردم الهوة العميقة التي تتسع منذ ٥ حزيران ٦٧ ـ ولحد الان ، بين الجماهير وبعض انظمة الحكم العربية ، بحيث اصبحت قضية انتصارنا في « معركة المصير » حلما ، في الذهن والذاكرة .. ازاء هذا المد اليميني المتسع والعداء المستشري للديمقراطية والتقدميين في الوطن العربي عموما .

اذن فحرية النشر والتاليف والتعبير والتنظيم ، والتحرك من ثم ضمان حقوق الاديب في العمل والعيش والتفرغ ، وضمان مستقبله (تقاعد او ضمان اجتماعي) ، واشراك ممثلي الادباء في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة وحل مشاكل النشر والتوزيع وازاحة العوائق (من رقابة وصعوبات مالية وتشريعية) لا تبدو مشاكل ومطالب منفصلة عن القضية الاساس : الحرية .

ان مبدأ الصلة ـ غير المنفصلة ـ التي تربط بين طموحات الاديب في الحرية وفي الانتصار بمعركة المصير ، والتي تربط ما بين البناء الثقافي وآفاق بناء المجتمع العربي المتطور والجديد ، تدفع الى ادراك كون ان الاديب العربي الثوري ـ خاصة ـ لا يواجه مطالبه المهنية كشيء منعزل « خارج الزمان والمكان » بل يعتبر الثقافة والادب وما ينجم عنهما من مطالب مهنية « غير قابلة قط للانفصال عن سائر وجوه الحياة » والمجتمع والعصر .

ففي السابق لم يكن الفكر الانساني كله ، وعبقرية الانسان كلها ، ليخلقا الا ليعطيا للبعض كل خيرات التكنيك والثقافة ، ويحرما الآخرين من الضروري الذي لا غنى عنه من التعلم والتقدم .. اما الان ، فان انتصار الاشتراكية في العالم ، وبعد اتساع حركات التحرر الوطني ، والنهوض الجماهيري الجبار داخل العالم الثالث ، وازاء هذا الوعي المتصاعد بضرورة تحرير الارض والانسان من كل تبعات التخلف والاستعمار والعبودية والاستغلال والسعي بالانسان وبالمجتمع للارتقاء الى الافضل ، فان المهمة الاساس التي تطرح نفسها على ذهن الاديب العربي هي الا تتحول معطيات الفكر الانساني وعبقرية الانسان ابدا ، الى « وسائل للعنف والاستغلال » .. وهذه مهمة تاريخية تواجه كل الادباء التقدميين ، ليس في الوطن العربي وازاء معركة المصير وحسب ، بل وفي العالم اجمع .. « لانهم يحملون بداخلهم الطاقات الخفية العظمى للثورة والنهوض والتجدد .. » .

ان هذه الموضوعة تحدد بوضوح الفارق الجذري بين فهمنا للثقافة وللمثقف العربي ، والاديب كواحد من المقاتلين على جبهات العدو ، من اجل انتصار امتنا العربية في معركة المصير ، وبين فهم الثقافة البورجوازية ، التي تسعى لتجزئة الاشياء وحصر السياسة للسياسيين او فيهم ، لذا تبعد ، المطالب المهنية ، عن مجموعة الظواهر والاشياء التي أوجدتها .

ان التاكيد على انسانية الثقافة الاشتراكية التي نسعى على تعميمها في الوطن العربي ، والمعارضة لكل استغلال وعسف ، هو أول مطالبنا السياسية والثقافية ، والتي تتفرع منه كل مطالبنا المهنية .. بل اننا نعتقد بان أية مطالب مهنية لا توفر الخبز والكرامة والحرية للاديب العربي بحيث يتحول نتاجه الى عمل تعبوي وثوري في الحركة ، لا تتحقق ما لم يتوفر مناخ الديمقراطية المتشبعة بحرية الاديب في اطار الالتزام ، لكي يعمق العلاقة والتواصل بينه وبين الجماهير في الاثر الادبي الفني ، محققا التلاحم التام بين فكره التقدمي وبين الثورة بمعطياتها اليومية وشمولها الانساني العام ، بحيث يتاح للاديب العربي ان يخلق الاثارة المطلوبة من خلال اللغة ، ومن خلال فهمه لفني التراث واستعمالاته الجديدة ، ثم من خلال الاستجابات الآنية لمتطلبات العصر ، وموقع ادبنا العربي في هذا العصر ، ثم من خلال استجابات ادبنا المعاصر للتغييرات الحاصلة في العالم ، وتداخل هذه الاستجابات مع استجابات الآداب العالمية والتراث الانساني لمتطلبات المعركة التي عاشها كل مجتمع من المجتمعات، وانعكاس ذلك على حركة التجديد في ادبنا العربي منذ الحرب العالمية الثانية ، وما كان يطمح له الاديب من حقوق ومطالب تندرج ضمن نضالاته التي خاضها ولم يزل ، دون انفصال عن مجمل تلك الحركات والاستجابات والتطلعات المشروعة ...

اقول ، ان مطالبنا المهنية لتتحقق ـ حتما ـ اذا تحقق لنا هذا التعميق لانسانية ثقافتنا العربية ، والثقافة الاشتراكية التي نطمح ونريد ان تكون في ارضنا العربية ، لان الاشتراكية ـ من وجهة نظرنا ـ هي البديل الاروع والاوحد التي تحل كافة التناقضات والاشكالات التي عجزت كل انظمة الحكم البورجوازية عن حلها ..

ثم ان الاشتراكية تجد الاستجابة الكاملة من لدن جماهير شعبنا على سعة الارض العربية ، لان حل معضلات البناء الثقافي والسياسي والاقتصادي هي موضع اهتمام وتطلع مشروع وعميق ، لدى هذه الجماهير الواسعة .. التي عانت ولما تزل من العسف والاضطهاد وخنق الحريات وبقايا الاستعمار والمصالح الاحتكارية ومن المؤسسات اليمينية الرجعية ، وقواها التنظيمية والقمعية في الوطن العربي .

ولان ثقافة اي شعب ، انما تنمو على تربته الوطنية الخاصة ، باشكال متواترة مأثورة ، مع الاستيعاب المتمثل لكل غنى الالوان القومية ، وافضل التقاليد والافكار الطليعية « فاننا » نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، الامر الذي نعمل من اجله اكثر ما نعمل ، والذي سيؤدي حتما الى النهوض بجماهيرنا الكادحة الى مستوى حياة واعية ، حياة ديمقراطية ، حياة اشتراكية .. آنذاك ـ اذا تحقق لجماهيرنا الواسعة كل ما تصبو اليه ـ فسوف لن تبقى للاديب العربي مطالبه الخاصة . ومن هذا المنطلق فنحن نعتقد بان حركة المجتمع والحياة والتاريخ ، سوف تضع الاديب ضمن مسارها ، وبذلك لا تتجزأ وتنفصل المطالب المهنية عن المطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاي قطاع من قطاعات الشعب .

اذن فان الاديب العربي لما يزل يعاني من جملة مشاكل خاصة ، مهنية ، وان المطالبة بحلها اصبح ـ تقليدا ـ يطرح في المناسبات، لكن الاستجابة لها تسير ببطء هنا وهناك وعلى نطاق ضيق جدا .. فالاديب العربي لم يزل يشكو من التشريعات المالية والضريبية التي

تستحصل على نتاجه الادبي بمعنى ان كل ما ينشره الاديب ـ من كتب خاصة ـ يدخل ضمن ايرادات ارباحه بعرف دوائر « ضريبة الدخل » ـ مثلا ـ

كما ان الاديب العربي لما يزل يعاني من توزيع كتابه المطبوع الى خارج القطر ، لان العديد من الصعوبات والعوائق والجمارك والمكوس والتحويل الخارجي والرقابة ... الخ ، كل ذلك يحول دون اعتبار الكتاب رسول ثقافة ، بل يعتبر في عرف هذه التشريعات المالية والمعوقات « سلعة » . ومن هنا تظل اغلب الكتب المطبوعة داخل كل قطر ، وهذا يتعارض اساسا مع قومية الثقافة العربية ، وحركة التفاعل بين اجزاء الوطن العربي ... لذا يمكن للدولة هنا ان تتخذ جملة اجراءات في هذا الصدد شريطة عدم تحويل الاديب الى تابع لها ، واتاحة الفرصة لممثلي الادباء المشاركة في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة .

والى جانب ذلك ، تظل الخسارة الناجمة عن مجازفة الاديب بطبع كتبه تلاحقه ، لعدم توفر جبهات التعضيد والدعم لمطبوعاته ، الا في نطاق معين في بعض البلدان العربية .

ثم تقف مشكلة عدم توفر اتحادات للناشرين والموزعين تنسق اعمالها مع اتحادات الادباء والكتاب العرب ، تضع حقوق الاديب العربي من مطبوعه في ايدي التجار المستغلين من بعض اصحاب دور النشر والتوزيع .. كما لا يزال الاديب العربي يعاني من قيود الرقابة على الكتاب العربي ، ومن زيادة اثمان مواد صناعة الكتاب ، ومن ارتفاع اجور الطباعة واجور التوزيع .. ومن مشكلة مجانية الكتابة والنشر ، كما انه لما يزل يعاني من احتياجه الى الضمانات المادية والمعنوية في حالة الاعتقال والسجن والنفي والمطاردة والمضايقة في الرزق والعيش ، اذ ان احترام مكانة الاديب ودوره في المجتمع يجب ان تضمنها تشريعات وقوانين ، تحقق له الحماية الكاملة ، وتوفر له الحرية ، وتضمن مستقبله ، وتوفر له الضمانات الاجتماعية (كالتقاعد وغيرها) . اذن ماذا عملت اتحادات الادباء في الاقطار العربية التي انتهكت بها الحرية ، واعتقل الادباء وسجنوا وشردوا ، او الذين تعرضوا للفصل من وظائفهم ، او الذين تعرضوا للاعتقال او التعذيب او القتل ، او الصاق التهم بهم جزافا ، او محاكمتهم بشكل غير عادل ؟

ان الاديب العربي لما يزل في مرحلة الدفاع عن النفس ، وهو يعاني من هذه الحالة المزمنة ، فكيف يتوفر له المناخ للدفاع عن الآخرين دون ان يكون الشاهد والمدان في بلده .

وان الاديب العربي لما يزل يركض وراء الخبز والحرية ، فمتى ينجو من هذا اللهاث المزمن ليتفرغ لمعركة المصير ؟

ان نظام التفرغ لم يتوفر بعد للاديب العربي ، فتمنحه الدولة راتبا لهذا الغرض مقابل انجاز عمل معين ، ضمن فكرة معينة .. الى جانب شكوى الاديب العربي ومعاناته من امور عديدة كالسكن والعمل والدراسة والضمانات الصحية والبحوث العلمية وحقوق التاليف ، وضمان المستقبل من العوز والكبر بتشريع قانون لتقاعد الادباء .. الى غير ذلك من مشاكل تخلق بالمقابل ، وبالضرورة ، مطالب مهنية ، يحول دون الاستجابة لها واقع عدم الاهتمام ـ القصود ـ من قبل بعض البلدان العربية ، باتحادات الادباء والكتاب ، وبتوفير الرعاية الكاملة لمنتسبيها ... الى جانب كون الحكومات التي لم تؤمن بالحرية والديمقراطية منهجا واسلوب عمل وحياة .. تقرب هذا الاديب وتبعد ذاك ، لمجرد اختلافها معه بوجهات النظر او المعتقد او الموقف. وان لم يتوفر للاديب العربي الظرف الملائم للتعاون المثمر بينه وبين ممثلي الحكم والعلم والعمل ، اى بين ممثلي السلطة وبين جماهير الشغيلة وابناء الشعب وبين رجال العلم والثقافة والتكنولوجيا ، فسوف لن يستطيع احد القضاء على البؤس والامية والامراض التي زرعها الاستعمار والتخلف في جسد الامة العربية منذ حقب طويلة من الزمن ، ولما نزل نتخر في هذا الجسد لحد الآن ..

لذا ، فان « وحدة ممثلي العلم والشغيلة والتكنيك » سوف تحقق المعجزات . وفي مرحلة بناء المجتمع العربي الجديد لا يمكن استثناء دور الاديب التقدمي وطاقاته الخلاقة .. واذا استمر استغلال الوضع العام في الوطن العربي لغير صالح الاديب فسوف لن يتحقق أي عطاء فعال يخدم بناء المجتمع العربي الجديد والانسان العربي الجديد .

« ان حرية الكاتب والمصور والفنان البورجوازيين ، الذين يتمتعون بنفوذ كبير » في ارضنا العربية » ليست سوى نوع مقنع من التبعية لكيس الدراهم ، تبعية للافساد وشراء الذمم والضمائر» .

وامام نتاجهم البورجوازي ، يقف « الادب الحر » الذي ينشأ حرا لان منابع قواه المتجددة دائما ليست الوصولية ولا التكالب على الربح بل الفكر الاشتراكي ، والطموح الحقيقي لانتصار الامة العربية على العدو الرئيسي : الامبريالية والصهيونية والرجعية ومؤسساتها التنظيمية المختلفة ، لذا فقد عجلت الثورة العلمية والتكنولوجية بفرز المثقفين وتصنيفهم و « حولت قسما منهم الى شغيلة اجراء ، يقتربون من حيث مصالحهم ومواقفهم من الطبقة العاملة نظرا لانهم ضحايا استثمار ماكر » كما تندمج فئات جديدة من الادباء الشباب في العملية الثورية ، لذا تبدي هذه الشبيبة الادبية رد فعل حادا تجاه الازدراء بها وفقدان افق وضعها الاجتماعي ، لذا فهي « تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال ضد الانظمة التي لم تتحرر بعد تحررا كاملا ، اقتصاديا وثقافيا وسياسيا » والتي اسهمت وتسهم في صنع نكسات امتنا العربية ، والتي تشارك بفعالية ، يوما بعد يوم ، في تنفيذ المخطط الامبريالي لاجهاض حركة التحرر الوطني والثورة ونضال فصائل المقاومة الفلسطينية الباسلة والقوى التقدمية ، وتظل هذه الانظمة تسهم في طرح حلول تصفوية وتساهم في عمليات ابادة المقاومة والقوى التقدمية ، لتكريس واقع اسرائيل كقاعدة استعمارية وكوجود غير شرعي ، شوفيني وتوسيعي واستيطاني ، على ارضنا العربية .

لذا فاننا نؤكد هنا ان المطالب التي يطرحها الاديب العربي الشاب ومن ثم حركة الشباب التي تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال من اجل استعادة الارض العربية المحتلة ، سوف تناضل ـ مهنيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا ـ بقدرات اكثر عمقا وصدقا واصالة ، من الادباء العرب الذين لا يتوانون عن خدمة كل الانظمة رغم طبيعتها المتفاوتة والذين يرتدون لكل مناسبة لبوسها ..

اقول ان الادباء العرب الشباب ، فكرا وطاقة ، سيقع عليهم عبء النضال الاعم والاشمل من اجل انجاز المهمات الوطنية والقومية، الى جانب مهماتهم الادبية والفنية ، في تلاحمهم الفعلي والواعي مع الطلائع الثورية في الوطن العربي ، وتحالفهم العميق مع الشغيلة والفلاحين واوسع قطاعات الشعب الوطنية ، من اجل دحر انظمة الحكم المهترئة ، وفي سبيل التقدم الاجتماعي والاشتراكية .

ومن هنا فان اشتراكهم الفعال في النضال اليومي والعام وتحركهم الواعي في الساحة العربية والعالمية ، من خلال نشاطاتهم المتنوعة ، ومنها نشاطهم الادبي والفكري ، لا يمنعهم قطعا من النضال الدائب في سبيل تحقيق مطالب الاديب العربي المهنية لخدمة المعركة ، والتي لا ينظرون اليها بمعزل عن نضالهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي العام .

فانه « حين تتوفر الظروف الموضوعية لازمة سياسية عميقة ، فان اتفه النزاعات والتي تبدو الاكثر بعدا عن مركز الثورة ، يمكن ان تتخذ اهمية كبيرة ، وان تكون زيتا يصب على النار ، وان تكون قطرة الماء التي تجعل الكأس يطفح » ..

من هنا فان عدم توفير الحرية للاديب في اطار الالتزام وعدم احترام مكانته ودوره في المجتمع ، وعدم حل مشاكله المهنية ، سيزيد هذه المشاكل تعقيدا ...

ومن هنا فان حل مشكلات الاديب العربي تظل مهمة عاجلة تواجه اتحاداتنا الادبية وحكوماتنا ، والا فلربما تشكل هذه المطالب وغيرها ناقوس الخطر ، الذي يعلن بدء التحرك لاسقاط كل المعوقات ومن يقف وراءها ـ التي تقف بوجه الاديب العربي من اجل خدمة معركة المصير ..

بغداد

محمد الجزائري